

بين الأدب وعلم النفس

د. زرارقة عطا الله

جامعة الأغواط

توجد علاقة وطيدة بين الفلسفة والأدب، حتى يظن الواحد منا، أن المجال التطبيقي للفلسفة، هو الأدب، وأن المجال الخصب للأداة التقنية الفلسفية هي الدراسات الأدبية. وما دامت الفلسفة لازالت تضم ضمنيا مجمل العلوم الإنسانية، فإن كل فرع مكون لها، له علاقة بالبحث الأدبي.

إن التخصص، جزئاً فعلاً المعرفة، وأظهرها حقولاً، لا تتسم بالوحدة والانسجام فيما بينها، وأضحى معها المتخصص حلقة في سلسلة لا تتكامل إلا بتكامل أطرافها. وهذا ينطبق مثلاً على طبيعة الأدب وعلم النفس، كما هو الشأن في كثير من التجزيئات التي مني بها الفكرين الحديث والمعاصر.

واعتقد الكثيرون، بأن الجزء ينسحب على الكل. أتذكر لما كنت في مرحلة التدرج بجامعة الجزائر، وفي مادة المنهجية آنذاك طرح سؤال، مفاده، هل يمكن قيام وحدة بين

أجزاء العلوم الإنسانية ؟ كان ذلك في ذروة التجزئة والتفكيك، وليس التكامل والتداخل. ولقد بقي السؤال، وظلت الإجابة عليه تراوح مكانها.

اليوم في هذا المقال لا نود الإجابة عل ذلك السؤال، بل نحن حيال موضوع آخر يتعلق بعلاقة الأدب بعلم النفس، أو موضوع علم النفس الأدبي، أو الدراسات الأدبية النفسية أو النفسية الأدبية كلها مصطلحات واردة التوظيف، في حضور النظرة الموسوعية، وفي غياب نضوج العلاقة بين علم النفس والأدب. وتحديد الفصل الهائي بينهما.

في هذا السياق ما فائدة علم النفس في البحث الأدبي ؟ وما قيمة البحث الأدبي لعلماء النفس ؟ ما الذي يتمخض عن تشابك وتداخل هذه العلاقات؟

إن الجانب المنهجي يتحدد في الإجابة عن هذه الأسئلة على ما يلي : بالنسبة للشكل في صياغة منهج المعالجة ، وهذا يتحدد بالفصل ولو ذهنيا بين الجانبين التقني والفكري في المنهج الواحد. أما بالنسبة للمضمون، فيتحدد من خلال التأثيرات الممكنة في المادة المكونة له.

الأدبي النفسي، والنفسي الأدبي:

يجب التوقف عند مسألة مهمة تتمثل، في العلاقة بين منهجية البحث في الدراسات الأدبية والمقارنة وبين مناهج البحث في علم النفس، هذه المسألة تتمثل في المنهج ذاته بين مضمونه الفكري وآلياته التقنية.

ففي الآداب القديمة لم يكن هناك الفصل واردا أصلا، نظرا للتداخل بين الأدب والملاحظات النفسية¹ للتداخل بين النص الأدبي والملاحظة النفسية الضمنية.

ففي قطع شعرية من الثقافة المصرية القديمة تبرز هذه الملاحظة بشكل جدي، حتى يعتقد المعنقد أن القطعة الشعرية في أساسها نفسي، ولكن عبر عنها شعرا :
لقد امتزجت العاطفة بالعقل، في تقديم وصف نفسي لإنسان ذلك الزمان، والنقد النفسي في تقويم سلوكه :

لمن أتحدث اليوم ؟

القلوب فلوت لصوص

وكل رجل يغتصب ما عند جاره

لمن أتحدث اليوم ؟

إن الرجل اللطيف يهلك

والصفيق الوجه يسير في كل مكان

لمن أنحدث اليوم ؟

إذا ما أثار الإنسان، الغضب يسوء مسلكه

فإنه بدفع كل الناس إلى الضحك.....²

لكن يمكن أن نفصل بين الجانب التقني والجانب الفكري، دون تجرد تام، مع تعض التأثير تقل أو تزيد درجته من باحث لآخر. وما ينطبق على شعر الثقافة المصرية القديمة ينطبق على الثقافات الشرقية القديمة وبشكل خاص الهندية منها.

كما ينطبق هذا على الشعر العربي في بواكره الأولى. نعم، ليس كل ما نظم ذا مضمون نفسي، ولكن جل ما كتب يحمل هذا التوجه، وليس هنا مجالا للتدليل أو التعليل، فالموسوعية فرضت هذه المزاوجة بين الدراسة الأدبية والنفسية.

لقد حضر علم النفس عندما عرف الإبداع على أنه، مظهر للحياة " الذي يجد أوضح تعبير له في الفن، يستعصي عن كل محاولات الصياغة العقلية، ذلك أن أي رد فعل على مثير من المثيرات يمكن تفسيره سببيا، أما الفعل الخاص وهو النقيض الكامل لرد الفعل المحض، فسيظل إلى الأبد مستعصيا على الذهن البشري " ³، أو بتعريف آخر يرى أن إشكالية الإبداع " إشكالية للتطور العلمي المعاصر، فهو شكل راق للنشاط الإنساني...فالتقدم العلمي لا يمكن تحقيقه من دون تطوير القدرات المبدعة عند الإنسان، وهذا التطوير من مهمات العلوم الإنسانية عامة وعلم النفس في دراسة الإبداع خاصة" ⁴.

إذا، دراسة الإبداع تقتضي ما يقدمه علم النفس، في أي مجال كان، وخاصة في الأدب وعلى وجه أعص في الشعر. ونظرا لعدم تطور المناهج لا يمكننا الكلام عما هو الأول بالظهور. فالإنسان خلق، وخلف ذا شاعرية متميزة، وخلق معبرا للأدب، وخلف ناطقا ليكون عاقلا ولغويا، وخلق جميلا وأولى محاسن جماله التناسق والتآلف، وخلق ذا نفس غائرة في أفق الجهول ليلتفت إلى نفسه، ويترك الآخرين ليسبروا غور أعماقه، ولكن كيف

خلق الإنسان مبدعاً؟ وبماذا نقيس درجة إبداعه؟ وما الفرق بين الإنسان المبدع والإنسان العادي؟

لقد دأب الباحثون على النظر للإبداع من زاوية علاقة الأدب بعلم النفس، الأدب كموضوع، وعلم النفس كأداة. لقد جهد فرويد نفسه عبر الوصول إلى نظرية التحليل النفسي ليقول لولا الأدباء والفنانين ما كنت لأصل إلى هذه النظرية، ولولا هذه النظرية ما قدمت أي تفسير للإبداع " يعد فرويد أول من أخضع الأدب للتفسير النفسي، كان شغوفاً بقراءة الآثار الأدبية شديد الإعجاب بالشعراء والأدباء (لأن الشاعر عنده رجل تراوده الأحلام في حال اليقظة كما تراوده في نومه، ولقد وهب أكثر من أي إنسان آخر، القدرة على وصف حياته العاطفية...) " ⁵

إذن ما الشعر؟ وما هي خصوصياته؟ وما الذي ينفرد به؟

يخطئ من يعتقد الإجابة عن هذه الأسئلة، ويخطئ من يعتقد أنه بإمكانه السباحة على شواطئها، فما بالك من يعتقد أنه يجمع بين تجربتين لشاعرين، لأن الشعرية وبكل بساطة، وهذا ما يذهب إليه ياكبسون في مقال له ما بين 1933-1934، بأن محتوى " مفهوم الشعر غير ثابت وهو يتحول مع الزمن، إلا أن الوظيفة الشعرية أي الشعرية... هي عنصر فريد، عنصر لا يمكن اختزاله بشكل ميكانيكي إلى عناصر أخرى... وبصفة عامة فإن الشعرية هي مجرد مكون من بنية مركبة.... إذا ظهرت الشعرية أي وظيفة شعرية بلغت في أهميتها درجة الهيمنة في أثر أدبي، فإننا سنتحدث حينئذ عن الشعر. " ⁶ ويضيف ياكبسون عن تحليلات الشعرية، على أنها " تتجلى في كون الكلمة تدرك بوصفها كلمة وليست

مجرد بديل عن الشيء المسمى ولا كانبثاق للأفعال. وتتجلى في كون الكلمات..... ليست مجرد أمارات مختلفة عن الواقع بل لها وزنها الخاص وقيمتها الخاصة " ⁷

ولذا لا يمكننا تقصي حدود الشاعرية، إلا من خلال الشعر ذاته، باعتبار الشعر تحديث الإنسان وتجديد لطاقتها، سواء بالنسبة للشاعر أو لمتلقي الشعر، لأن الأدباء والشعراء هم " المكتشفون الحقيقيون للاوعي عند الإنسان " ⁸ بالإضافة إلى كونه، جمالا ومتعة وتعبيرا.

الشعر ولادة جديدة :

الكلام عن الشعر لا يعني انتقاصا من النثر ، فكلاهما فن من فنون الكتابة المروحة على نفسية الإنسان، والاختصار في هذا العنوان الفرعي على الشعر، ذلك لكون العلاقة وطيدة بين الشعرية وخبايا النفس. فالشعر ولادة بعد محاض عسير يعاينه صاحب التجربة الشعرية، فهو ولادة النفس من جديد، لأن الشعر يقرأ النفس والعالم كما يقرأ الشعر نفسه..... لأنه يقرأ الشعر بالشعر ⁹

إن لعلاقة الشعر بالنفس، بل لعلاقة الشعر بعلم النفس، جسرا لا يمكن تجاهله، وتداخل وظيفي لا يمكن الاستغناء عليه. وإن كان العمود الفقري لعلم النفس الأدبي يركز بدرجة أقصى على الإبداع وتأثيراته الإيجابية في تنشيط الحياة الأدبية أولا، وفي بلورة الجوانب الفكرية من خلال عمليتي التفريغ والتسامي Sublimation ثانيا. فإن الفكرة الأساس تتمثل في ما للشعر من تأثير على نفس المتلقي من ناحية التمتع بدلالات اللفظ والمعنى وتزاورهما في إحداث البهجة والسرور، والإحساس بالروعة والجمال.

إن أحد منافذ التخفيف من التوتر السلبي، ومن القلق والتشاؤم المرضيين، بل إن أحد منافذ إعادة تجديد الطاقة الحيوية للنفس، تكمن بدون أدنى شك فيما تنتجه النفس الواعية بمكامن مشاعرها ذات الصلة الواقعية بما هو إنساني.

ولما يعرج الفرد على الثقافات الشرقية القديمة، يشعر من خلال ما جادت به القصائد الشعرية المتناثرة هنا وهناك، أنها تحمل هما، وليس الهم هو الذي يحملها. فصاحب القصيدة مشغولا بقضايا، وليست القضايا مبررا لمشاغله. وهذا ليس على المستوى الوجداني، وإنما في الأمر انشغالا بقضايا إنسانية، وحتى بقضايا تربوية بيداغوجية ترجمت شعرا ممزوجا بنبرة ترغيبية تلهف النفوس، وتقوي إرادة التمتع بالإلقاء والاستماع على حد سواء. ونكتشف من خلالها أن التغير في الحياة والإنسان مس الجوانب الاستعمالية فقط. ولم يمس الجوهرية الشاعرية للإنسان، فاهتمام الإنسان ظل هو هو لم تتغير بدليل ما جادت به قرائح الشعراء من بعد تلك الأزمنة المتوالية الضاربة عمقا في التاريخ الزمني والثقافي للإنسان.

ومن البديهي أن للشعر خصوصيات، فليس كل شعر شعرا، وليس كل من تأججت لديه العاطفة، كانت ترجمته لها شعرا. فكم من كاتب، ومن عالم شعر طول حياته فأنتج قصيدة يتيمة، ولنا في ذلك مثال ابن سينا في قصيدته العينية، على الرغم ما يقال حول هذه القصيدة، وكم من قصائد شعرية لم تمس الوجدان ولا تחדش العاطفة ولا تحدث تفاعلا بغض النظر عن موضوعها وغرضها وأهدافها.

وفي هذا المعنى تخلق القصيدة الشعرية من نبرة الإبداع الناتج عن التحرر الباطني، لأن الشعر في النهاية ذا منحى حسي خالص، وذا بعد عاطفي شاعري إنساني صرف.. فلولا تلك النبرة الإبداعية ، وتلك العاطفة الإنسانية ، ما كان للإنسان أن ينسل لحظات من همومه وانشغالاته في اتجاه ما يميز إنسانيته ، وما يحدد حريته، وما يغذي ذوقه الجمالي والفني ، فأحيانا تضيق به الأرض بما رحبت، وينسد عليه الأمل بما يحمل من فضاءات، تتجاوز التصورات البشرية ذات الشطط العقلي، فيأتي الشعر ليوسع الأفق على ما ضاق وانسد.

ولكن ليس كل قصيدة شعرا، وليس كل تصنع يؤدي إلى التعبير الواجب توافره في النص الشعري ، وليس كل تكلف يخدم المعنى ، ويسير وفق طبيعة الأشياء ، وليس كل رص للكلمات يستقيم معه الأسلوب، ويحدث تفاعلا وجدانيا تنتشي من خلاله النفس، وتتجدد الطاقة الباطنية للإنسان، حتى ولو ميزه الإيقاع والوزن والتوافق وأحيانا الانسجام. فالنص الشعري يظل بذلك فاقدا لروحه الحيوية ومفتقرا للتأثير الذي من أجله وجد.

الشعر إحساس ومعاناة ، ومعايشة لهموم الآخر ، هو اندفاع الذات الشاعرية، الموجودة بداخل كل إنسان، إما أن تكون ذات موقع متأثر، أو ذات وضعية تسمح بالتأثير الإيجابي، الشعر توظيف للكلمة ، إذلال للكلمة ، ترجمة ل لاواعية لمخاض يتخلله قلق إيجابي. الشعر استلهاً وتطويع للغة الساحرة ، يتسلل من سحرها تركيب تزدحم في امتزاجه العبقري والروعة والسمو. الشعر ترجمة لا واعية للحظة إبداعية بطاقة لغوية تتخللها مظاهر الدهشة، ومعالم الإعجاب وخفايا الاستغراب ، وأحيانا الانبهار بمعاناة شاعرية الأنا التي

هي بداخل كل شاعر. الشعر تجاوز الأنا للأنا ، وتصادم الكلمة للكلمة في لحظة انبثاق الطاقة الباطنية على حساب ما هو مألوف من سلوك مرئي متداول.

فعلا الشعر ولادة، لا يمليه موقف خارجي، ولا توحى به مناسبة هادفة، إلا إذا كانا الموقف والمناسبة قد تخللا معارج الارتجال الطبيعي وتكونا في رحم الأنا الشعاعية، فيأتي الارتجال موافقا لا معاكسا، سلسا لا مكلفا، منسابا لا مرتجا طليقا لا لجلجة فيه، ولا انقباض يعتريه.

الشعر جمالية تنبثق من روح التفاؤل، ليكسر حواجز وأبعاد النظرة الضيقة للحياة. بجمالية النص الشعري ينهزم فينا الغرور ونغدو جزءا من الطبيعة نحاكها بل نندمج فيها ليشكل وحدة مع مظاهرها المختلفة، وننفصل عنها لرسم لوحة ذات تناسق وانسجام، بالشعر نتذوق الجمال وبالجمال نصنع الحياة ونكرر المتعة تلوى المتعة. إن الذي يعكر صفوة "اللينوبة" بين الإنسان وذاته هي هذه المسافة الفنية الجمالية ، فحضورها يرسم أساس التفاؤل والانفتاح ، وغياها ينسج رداء التشاؤم والانقباض.

الشعر مسلك من مسالك السلوك الحضاري ، بل دعامة من دعائمه. إن السلوك يتحدد في جانب من جوانبه الحضارية بتلك الرتبة المتوازنة، وذلك التناسق بين الفكرة ومعالجتها، وللشعر منفذ في صنع تلك الموازنة وذلك التناسق. ليس عند الاستماع إليه، بل لدى تذوقه وانعكاسه على حيثيات المواقف الاجتماعية ذات الصلة بالعلاقات الإنسانية. فلو لم يكن هناك انعكاس وردة فعل ذات تأثير إيجابي، لما كان للشعر من صدى ووقع في

تغيير نمط الحياة، سواء على مستوى السلوك الحضاري، أو على مستوى الأفكار المصاحبة له. إن الشعر بهذا المعنى حركة صامتة تؤثر ولا تتأثر.

الشعر جاذبية تجذب مكان من ضعف الإنسان نحو مبادئ القوة، فيترجم آنذاك إلى شعور بالروعة والفخامة. وقد يكون الشعر ذاته بمساعدة منا يتميز بالفخامة والجمال في آن واحد ، لا لأنه يوحي برقبة المشاعر وقوة الكلمة ، بل لأن الشاعر يضفي عليه مشاعره، وما تمكن منه من شاعرية ومحبة لنفسه ولغيره. نستمتع بالشعر لأنه يعبر عما خفي في اللاشعور الذي نهله ولا نستطيع اكتشافه إلا بواسطة النبرة المعبرة والحاذقة. نستمتع بالشعر في فضاء تلك العزلة الهادئة، ذات التركيز المنبثق عن انفصال ذهني بين النفس ومعارجها والجسد ومقتضيات شهواته. إنه وبكل بساطة مخرج يساعدنا على الركون إلى الهدوء التام والطمأنينة الداخلية، حيال ما تسببه عاصفة الحياة وصخبها.

إن الشعر يحيى فينا تقلب تعاقب الليل والنهار، وتقلب مفاصل الحياة وفصولها. الشعر إبداع الفن ، والجمال هو التعبير عن ازدحام الأفكار والمشاعر ، ولكن في صورة تتمظهر بالجمالية والفخامة فتثير فينا غبطة ، هي غبطة الفرح والانتعاش الفطريين ، وقد تثير الصورة الشعرية في أنفسنا وتنبعث لما تحويه من تناسق يتشابه ونوبات النفوس على نحو يبعث الدهشة والإعجاب.

وأخيرا ، قد تبعث القصيدة الشعرية في أنفسنا الرضى والاطمئنان لما تحتويه من صدق التعبير، وما الشعر؟ إن لم يكن جاذبية تضاف إلى جاذبيات سائر الفنون ، في أن يطبع على الفوضى التي تقع للإنسان في عالم الحس والتجربة صورة لها دلالة ، ولها مغزى ومحتوى بل

لها معنى يشد الانتباه ويرسم معالم التركيز ، التي بفضلها تميز بين عالم الفوضى وعالم
الرتابة والهدوء. الشعر إبداع بل ولادة عسيرة المخاض.....الشعر شعور الإنسان
بالإنسان، الشعر خلود الإنسان للراحة بواسطة الإنسان، الشعر مخاطبة الوجدان
للوجدان...

هكذا أتصوره، لأي أحس وأشعر به في غياب وجوده ومؤانسته، وفي خضم ضبايته
التي طغت فأفسحت المجال لخطاب الجسد للجسد ، والمادة للمادة ، فراح الإنسان ينشد ما
طغى ونسي ما غاب في زحمة الحياة وسرعتها فأبىد الإنسان ذا الحساس المرهف وذا
المشاعر الجذابة بداخل كل واحد منا فأصبحنا نحيا الحياة ونعيش جوانب منها دون أن
نفهم معانيها وأهدافها ، ونتعمق في مدلولها ، وكنونيتها.....

فالحياة حياة بالعقل والقلب والمشاعر والوجدان. فمتى تتحول أو نحول الطبيعة البشرية
إلى طبيعة إنسانية ينحكم فيها التحرر الباطني ويسودها إعمال العقل وينتشي فيها تذوق
الجمال ذا المشاعر الإنسانية الرفيعة.؟

الإبداع وعلم النفس الأدبي :

يعتبر علم النفس الأدبي إذا أحد الحقول الجديدة، الذي يتميز بالتداخل والتشابك
المنهجي، والأهمية القصوى التي يكتسبها بالقياس إلى التجربة الأدبية. وهي محاولة الولوج
إلى الأثر الأدبي، عن طريق الخلفية المعرفية للدراسات النفسية. لذلك، تأخذ الأبعاد النفسية
أهمية بالنسبة للباحث من أجل :

تفسير مشكلات الحياة

تفسير وتحليل السلوك الإنساني

عطفًا على ما سبق، فإن العلاقة بين علم النفس والأدب، لا تحتاج إلى إثبات بل هي في حاجة إلى تفسير وفهم، وتحديد لعناصر التأثير والتأثر. فقوى النفس تتعمق في الحياة، فتحيلها إلى أعمال فنية، وهذه الأخيرة تترجم الحياة، لتكشف لنا أسرار عميقة في النفس منها :

- توتر الذات الشاعرة : لا يمكن الكلام على الإبداع دون الكلام عن التوتر النفسي لدى الشاعر، فكلما ارتفعت نسبة التوتر، كلما كانت هناك معاناة ومكابدة يتسامى من خلالها الشاعر بما تجود به القريحة كتابة يبدو أن فعل الكتابة مجرد طريق إلى التنظيم أو التوضيح، فإذا سلك الشاعر طريقاً آخر وبلغ الهدف انتهى التوتر¹⁰.

إن الوثبة التي تعتري الشاعر ، هي وثبة لا تنتقل من بيت إلى البيت الذي يليه وفق تفكير منطقي براعي فيه السابق باللاحق بل هناك لحظات يتوقف فيها للتأمل، وللتسجيل أيضاً، يدعى هذا التوقف بـ "لحظات الإبداع"، وهي لا تتوفر لدى الناس جميعاً ، وإنما توجد عند فئة معينة من الناس فقط. والشاهد على ذلك الكتابة " المقصود هنا تأمل الشعراء لعناصر شعرية طبيعية، إذ جاز التعبير، مثل النجوم والبرق والفجر.....وتأملهم الكتابة من خلال العناصر الطبيعية نفسها..."¹¹

إن الجهد الذي يبذل في فهم الإبداع ومعرفة عناصره، جهد يتسم بالخواء لأن " محاولة الكشف عن لحظات الإبداع تستلزم أن الشاعر إذ يبدع القصيدة، يمر بلحظات تلق أو انطلاق يكاد يختفي فيها نل أثر لبذل الجهد ثم يمر بلحظات أخرى ملؤها المقاومة...ومعنى هذا أن هناك اختلاف بين لحظات الإبداع..."¹²

القلق الإيجابي:

يندرج في إطار علم النفس مصطلحي، القلق الإيجابي والقلق السلبي، والقلق السلبي قلق مرضي ينعكس على الصحة العامة للفرد، وليس هنا مجال التفصيل في سلبياته. ولكن الذي يهمنا هو القلق الإيجابي " والقلق هنا ليس مما يؤدي إلى الخمول، بل هو قلق بسيط يعرفه كل الذين تحملوا مسؤوليات.... ولا يصيح القلق هنا حاجزا يفصلنا عن العمل، بل هو جزء من هذا العمل " ¹³. والفرق بين التوتر والقلق الإيجابي، هو أنهما يؤديان إلى الإبداع عند الشاعر ، وأنهما يختلفان في الدرجة ويتساويان في نوع المعاناة ، وكلا المصطلحين يؤسسان لوجهة نظر في علم النفس.

خاتمة :

إذن تتمخض العلاقة بين علم النفس والأدب عن حالة الإبداع لدى الفرد والجماعات، وهي حالة معقدة لا من حيث الفهم ولا من جهة التفسير، لأنها وبكل بساطة حالة نفسية منتجة. ففي كل النظريات المفسرة للإبداع نلمس هذا التقاطع بين النفسي والأدبي (النظرية الترابطية للإبداع - النظرية الكشتالتية في الإبداع - النظرية السلوكية في الإبداع نظريات التحليل النفسي في الإبداع - نظرية جيلفورد في الإبداع - الاتجاه الإنساني في الإبداع.....) كلها نظريات تتقاطع مع الأدب في تفسير الإبداع.

الهوامش